

مشاهير مؤرخي سيرة رسول الله

للكرماتور إبراهيم أحمم العروى

نشأ التاريخ الإسلامى نشأة مستقلة ، ولها طابعها الخاص ، ومقوماتها الذاتية الواضحة . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن طليعة المؤرخين المسلمين لم يتأثروا فى تدوينهم للأحداث بما كان متبعاً عند رجال التاريخ القدامى من اليونان والرومان ، أو غيرهم من مؤرخي الأمم التى جاورت الدولة الإسلامية عند نموها واتساعها . فالمؤرخون المسلمون الأوائل كانت لهم نظرتهم الخاصة بهم فى تدوين الأحداث وعرضها ، ثم طريقة التبويب وعرض الموضوعات . وصارت نشأة التاريخ الإسلامى بذلك نشأة صادقة ، وتعبيراً حساناً عن المجتمع الإسلامى ، وتطوره ، واتساع أهدافه ، وتراعى آماله .

ودعم هذه النشأة الاستقلالية للتاريخ الإسلامى أن القامئين بأمر تدوينه لم يكونوا فى أوائل أمرهم من الرجال الذين عاشوا فى كنف الأمراء ، أو بمن عهدت إليهم الدولة بجمع الوثائق والأسانيد ، ثم عرضها بما يتفق ووجهة نظر السلطات الحاكمة ، وإنما عاش أولئك المؤرخون عيشة بسيطة ، مبتعدين عن زخارف الحياة وبريقها ، قانعين بالقليل من أسباب العيش ، قاصرين جهودهم على تتبع أحداث ماضيهم وشرح ما امتلأت به من نزعات مذهبية وعقائد سياسية وصور اجتماعية ، مستهدفين بذلك تجنب مواطنهم العثرات وأخطاء السلف ، وموضحين لهم النماذج العالية الجديرة بالدرس والاتباع . وجاءت مدونات المؤرخين المسلمين بذلك صورة نزيهة للمجتمع الذى عاشوا فيه ، وتعبيراً صادقاً عن مشاعرهم وخبراتهم .

وساعد على نزاهة مصنفات المؤرخين المسلمين الأول أنها نشأت فى مهاد الدين ، وشبت وترعرعت لخدمة مطالب الدين كذلك . فالتاريخ الإسلامى امتزج فى أول أمره برواية الحديث وتفسير القرآن الكريم ، وصار حدثاً مقترناً بهما فى كل مراحل تطورها . ذلك أن المسلمين حين اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره ، واستقصاء الحديث احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات والمشاهد التى وردت فيها

الأحاديث ، وتحروا في ذلك منتهى الدقة والأمانة ، لأن القرآن الكريم حوى الأحكام والشرائع والأخبار التي تهدي الناس سواء السبيل ، فضلاً عن أن الأحاديث المأثورة تعين على توضيح ما يواجه الناس من مشاكلكهم وتساعدكم على حلها .

واستازمت هذه الدراسات الدينية أن يكون النبي الكريم وسيرته أول موضوع يتناوله التاريخ الإسلامي ، لأن تفهم حياة الرسول الكريم وجهاده أمر جوهري يفيد المجتمع الإسلامي في السير على هدى السنة والاسترشاد بتعاليمها . وكان تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم داخلاً فيما يروى من الأحاديث ، حيث دأب المحدثون من علماء المدينة المنورة في أول الأمر على جمع كل ما يصل إلى علمهم من أحاديث دون ترتيب ، ولكن متوخين الدقة التامة في الحصول على تلك الأحاديث . ولما رتبت تلك الأحاديث في الأبواب التي تشمل المواضع المختلفة ، جمع منها ما يتعلق بسيرة الرسول الكريم في أبواب مستقلة ، وكان ذلك إيذاناً بولده التاريخ الإسلامي .

وكان أشهر تلك الأبواب ما يسمى باسم « السيرة والمغازي » ، لأن المغازي ولو أنه يقصد بها الغزو إلا أنها لم تلبث أن صارت قاصرة على جهاد النبي الكريم ومرادفة لسيرته السامية . وكان السبب في اشتداد الاهتمام بسيرة الرسول الكريم في القرنين الأولين للهجرة هو الإفادة من أقوال النبي في التشريع وفي التنظيم الإداري للدولة الإسلامية الفتية . ثم إن مغازي الرسول ، ومغازي أصحابه ، وهي التي عرفت باسم « السرايا » ، لأن الرسول لم يشترك فيها ، صارت مصدر اعتزاز للمسلمين ، ومواضع محبة في مجالس السمر . فضلاً عن ذلك غدت المشاركة في مغازي الرسول الكريم وفي السرايا التي بعث بها إلى مختلف الجهات عاملاً هاماً في رفع المنزلة الاجتماعية ، وعنصراً هاماً في تحديد العطاء في الديوان ، ولا سيما في تلك الأيام الأولى من حياة الدولة الإسلامية .

وتأسست في مدينة الرسول الكريم في ذلك الوقت ، أي في أواخر أيام الدولة الأموية أول مدرسة للتاريخ الإسلامي . ثم أن هذه المدرسة حفلت بطائفة من الأساتذة الأعلام ، أسهموا خالفاً عن سالف في وضع الحجر الأساس للدراسات التاريخية ، ثم إعلاء صرحها في روح من التفاني والتعاون الصادق . واختص نشاط هذه المدرسة بالتأليف في « المغازي » ، أي في سيرة رسول الله . وبدأ هذا النشاط

في جهود مشتركة ، تمثلت في حلقات للدراسة ، وأحاطت كل حلقة بأستاذ . ثم إن ، الدراسة في هذه المدرسة كانت مفتوحة لمن يريد ، والرواية تسير في سلسلة منتظمة ، بحيث تسهل انتقال سيرة الرسول أو مغازيه جيلا عن جيل ، ومن شخص إلى شخص ، على شكل محاضرات عادة .

وأول من عرف بالتأليف في هذا الميدان الجديد من المغازي والسيرة أربعة هم :
أبان بن الخليفة عثمان بن عفان (ت بين ٩٥ — ١٠٥ هـ / ٧١٣ — ٧٣٣ م) ،
وعروة بن الزبير (ت ٧٩٤ هـ / ٧١٢ م) ، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م) ،
ووهب بن منبه (ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) . ويقف على رأس هذه الطبقة الأولى من مؤلفي السيرة عروة بن الزبير . ويرجع السبب في ذلك إلى مكانته الاجتماعية العالية التي تتمتع بها ، والتي أتاحت له الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن سيرة الرسول الكريم .

وينتسب عروة إلى أسرة عربية عريقة النسب ، كان لأفرادها صلة وثيقة بحياة الرسول الكريم . فأبوه الزبير بن العوام ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ، وخالته السيدة عائشة ، وجدته خديجة بنت خويلد ، وأخوه عبد الله بن الزبير . وقد أتاحت صلة القربى السالف ذكرها لعروة الفرصة لجمع أعظم قدر من الروايات عن الرسول الكريم ، وبخاصة عن أدق التفاصيل . فقال عمر بن عبد العزيز عنه : « ما أجد أعلم من عروة » . وقد قضى عروة وقتاً كبيراً من حياته في الدراسة والتدريس . كذلك ، وصار له طلبة ينقلون عنه العلم ، كما صار مقرباً إلى البيت الأموي الحاكم ، ويزوده بالمعلومات التاريخية الهامة .

واشتهر عروة ، إلى جانب روايته أخبار الرسول الكريم ، بوضع بعض المعلومات كتابة ، وبخاصة في الرسائل التي كان يبعث بها إلى أبناء البيت الأموي . وقد انتقلت دراسات عروة جيلا عن جيل ، واستفاد منها كثير من المؤرخين ، واحتفظوا بها في كتبهم . ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتب ابن اسحق والواقدي والطبري . وصارت كتابات عروة التي تناقلها أولئك المؤرخون هي أقدم دراسة لحياة النبي ، وعبرة عن خطوط أولية لمعالجة موضوع السيرة النبوية ، فضلا عن أنها صارت نماذج تحتذى ، عند من جاء بعده من مؤرخي سيرة رسول الله .

وتناول عروة في دراساته معالجة المواضع التي تتصل بسيرة الرسول الكريم ، من حيث : بدء الوحي وبداية الدعوة ، وهجرة نقر من المسلمين إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة . ثم تناول بعد ذلك أعمال الرسول الكريم طوال إقامته بالمدينة ، ومن أهمها الغزوات والسرايا ، مثل سرية عبد الله بن جحش ، وغزوة بدر الكبرى ، وغزوة قينقاع ، والحنديق ، وغزوة بني قريظة ، وصلاح الحديبية ، وحملة موته ، وفتح مكة ، وغزوة حنين ، وغزوة الطائف ، وبعض مراسلات الرسول ، وأخباره صلى الله عليه وسلم في أواخر أيامه .

وترجع أهمية تلك الدراسات التي قام بها عروة إلى الثقة الكبرى في روايتها ، فضلاً عن أسلوبه في تدوينها ، وهو الأسلوب الذي صار مثلاً يحتذى عند الناقلين عنه . إذ كان أسلوب عروة سلساً بعيداً عن المبالغة ، مملوء بالحوية ، ودأب على التمهيد للحادثة التي يتناولها بمقدمة تحدد موضعها التاريخي ، وتفيد القارئ في الاحتفاظ بوحدة الموضوع ، والتسلسل كذلك . فعندما تناول الهجرة إلى الحبشة مثلاً ، مهد لذلك ببيان تطور العلاقات بين المسلمين وقريش منذ بداية الدعوة ، وما أعقب ذلك من تطورات ، موضحاً السبب الذي حدا بالرسول الكريم إلى اختيار بلاد الحبشة بالذات ، مما يضفي على دراسته حيوية وقوة .

ومن ذلك أن عروة بدأ هذه الحادثة قائلاً عن قريش : « لم يبعدوا عنه (أى الرسول) أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم » وأن قريشاً أخذت عندئذ تضطهد المسلمين . وأشار عروة إلى محاولة قريش العمل على أن يفتنوا من تبع الرسول من المسلمين ، « فكافت فتنة شديدة الزوال ... فافتن من افتن رسول الله من شاء » . ولما رأى الرسول ما حل بأصحابه أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة . وذكر عروة السبب في اختيار الرسول للحبشة قائلاً : إنها كانت مركزاً من مراكز تجارة قريش ، وهاجر إليها لذلك كثير من المسلمين .

وعلى هذا النهج الواضح سار عروة في سرد السيرة ، واهتم في نفس الوقت بالكثير من التفاصيل التي تساعد على فهم تلك السيرة العطرة . فاستشهد بالآيات القرآنية التي تتصل بالأحداث التي يرويها ، وبيان الظروف التاريخية لتلك الآيات . فأشار إلى الآية الكريمة التي تبين هجرة نقر من النساء بعد أن صلح الحديبية من

مكة إلى المدينة ، لإعتناقهم الإسلام ، وموقف الرسول الكريم منهم . ويعتبر عروة بذلك مثلاً مبكراً من أمثلة المؤرخين المسلمين الذين أجادوا الجمع بين التفسير والتاريخ . وهو الأمر الذى سيبلغ ذروته عند الطبرى فيما بعد .

ومن الأشياء الطريفة التى تكشف عن دقة عروة فى سرد السيرة ، أنه عمد إلى بيان الحالة النفسية للمسلمين ، وبخاصة فى الأحداث الكبرى ، مثل غزوة بدر . واستطاع عروة أن يجعل من أعماله وحدة متكاملة ، تشهد له بأن يحمل عن جدارة لقب أشهر مشاهير الطبقة الأولى من مؤرخى سيرة رسول الله .

ونالت دراسات عروة وأقرانه من مؤرخى السيرة اهتمام رجال الطبقة الثانية ، ممن اشتغلوا فى هذا الميدان المبكر من التاريخ الإسلامى . ومن رجال تلك الطبقة الثانية عاصم بن عمرو بن قتادة (ت ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م) ، وعبد الله بن أبى بكر بن حزم (ت ١٣٠ هـ / ٧٥٢ م) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (ت ١٢٤ هـ / ٧٤١ م) . ويعتبر الزهرى من أشهر رجال الطبقة الثانية ، وحلقة الربط بينها وبين رجال الطبقة الأولى من مؤرخى سيرة رسول الله .

وساعد الزهرى على أن ينال تلك المكانة العالية أنه تلمذ على عروة بن الزبير ، واستفاد فائدة عظيمة من أعماله . وكان الزهرى ينظر إلى عروة نظرة احترام وتقدير . ويراها بجرأ لا ينزف . ثم تفوق الزهرى على أستاذه بقوة الذاكرة ، وتدوين ما يسمعه على « الألواح » و « الصحف » . وروت المراجع أشياء طريفة عن الزهرى ، منها أنه كان يحرص على شرب المسلى ليقوى به الذاكرة ، ويدعم تلك الذاكرة بالتدوين . ورأى المعاصرون أن حرص الزهرى على التدوين هو الذى أعطى لدراسته الأهمية والقوة والأفضلية على معاصريه من رجال الطبقة الثانية .

واعتمد الزهرى على مقابلة كبار رجال العلم من معاصريه ، وكذلك النساء ، وجمع ما لديهم من معلومات عن سيرة الرسول . فكان يتردد على المجالس ، ويزور الناس الثقة فى بيوتهم ، ويتعزى منهم عن الروايات الصادقة . وقد اعترف أحد المعاصرين بتفوق الزهرى عليهم ، موضحاً سبب ذلك قائلاً : « كان (أى الزهرى) يأتى المجالس من صدورهم ولا يأتىها من خلفهم ، ولا يبق فى المجلس شاباً إلا سألهم ، ولا كهلاً إلا سألهم ، ثم يأتى الدار من دور الأنصار فلا يبقى شاباً ولا كهلاً ولا محوذاً ولا كهلة إلا سألهم ، حتى يحاور ربات الحجال » .

ولاستطاع الزهرى أن يحصل على أكبر قدر من الروايات عن سيرة الرسول الكريم ، وشهد له المعاصرون ، ومن استفاد من دراساته بالعلم الواسع في هذا الميدان . وقد جمع الطبرى تلك الأقوال التى تركها العلماء عن سعة معلومات الزهرى قائلا : « كان محمد بن مسلم الزهرى مقدماً فى العلم بغازى رسول الله (ص) وأخبار قريش والأنصار ، رواية لأخبار رسول الله (ص) وأصحابه » . وحفظ الزهرى بذلك ثمار الدراسات التى قام بها رجال الطبقة الأولى من مؤرخى السيرة ، وبخاصة عروة بن الزبير ، ثم بدأ يعمل على السير بتلك الدراسات خطوات إلى الأمام كان لها أكبر الأثر فى تنمية أصول الأبحاث الأولى فى التاريخ الإسلامى .

وتتضح أهمية الدور الذى قام به الزهرى فى عاملين هامين : أولهما أنه نقل السيرة من الخطوط العريضة التى اتضحت عند رجال الطبقة الأولى إلى المنهج المحدد المعالم ، سواء من حيث العرض أو أسلوب التدوين . أما من حيث العرض فقد بدأ الزهرى أعماله بتقسيم سيرة الرسول الكريم ثلاثة أقسام رئيسية هى : حياة الرسول قبل البعثة ، مع تمهيد طويل لذلك بدراسة عامة لما قبل الإسلام . وتناول فى القسم الثانى حياة الرسول الكريم فى مكة ، وأخيراً أوضح فى القسم الثالث نشاط الرسول الكريم بعد الهجرة إلى المدينة .

وأهمية هذا التقسيم الذى وضعه الزهرى أنه صار النموذج فيما بعد لكثير من كتب السيرة التى وصلتنا ، والتى مازلنا نطالعها حتى الوقت الحاضر . هذا إلى أن التفاصيل التى أوردها الزهرى داخل كل قسم من أقسامه الثلاث صارت بدورها عناصر يعمل الخلف على توضيحها أو الإضافة إليها بما يحمل سيرة الرسول الكريم أ أكثر وضوحاً ، وأعم فائدة للناس . وكان منهج الزهرى فى تلك السبيل مبتكراً ، يشهد له بالتفوق والاطلاع الواسع ، والقدرة على العمل المتواصل . ويكفى إلقاء نظرة سريعة على ما وصلنا من أعمال الزهرى فى هذا الميدان لنعرف الدور الهام الذى أسهم به هذا المؤرخ فى بناء الدراسات التاريخية المبكرة فى الدولة الإسلامية ، وما قدمه من أجل الخدمات لأجيال الباحثين فى التاريخ الإسلامى .

تناول الزهرى فى القسم الأول من دراساته الحديث عن يوم خلق آدم ، ويوم دخوله الجنة وخروجه منها ، ثم هبوطه إلى الأرض ، حتى بعث الله الرسول الكريم .

وتناول بعد ذلك ذكر نوح وذريته ، وأبناء إسماعيل ، وأخبار العرب . وتدرج من ذلك إلى أخبار الأنبياء ، حتى بدأ يجمع الروايات عن الرسول الكريم وأسرته قبل البعثة . وتعتبر هذه الدراسة محاولة جريئة من الزهري لدراسة عصر ما قبل الإسلام ، وفي وقت يصعب فيه على أى باحث إذ ذاك التصدى لمثل هذا الموضوع الصعب الخطير .

وانتقل الزهري بعد ذلك إلى دراسة حياة الرسول الكريم في مكة ، منذ بدأ نزول الوحي ، وكيف عرف الرسول الكريم عن يقين أنه صاحب رسالة سامية عليه الجهر بها . وتابع الزهري دراساته موضحاً أعمال الرسول لنشر الدعوة بين قريش ، وملاقاته من متاعب ، وهجرة المسلمين إلى الحبشة ، ومقاطعة قريش لبنى هاشم وأخيراً ذكر بيعة العقبة ، التي أورد نصها ، مشيراً بذلك إلى انتشار الإسلام مبكراً في المدينة .

وخص الزهري القسم الثالث ببيان نشاط الرسول الكريم في المدينة ، فشرح حديث الهجرة إلى يثرب ، ووصول الرسول إليها ، وبناء مسجد ، هناك . وأشار إلى موقف اليهود من الرسول . ثم تناول بعد ذلك السرايا والغزوات ، موضحاً نشاط المسلمين فيها ، وقيادة الرسول الكريم لنشر الدعوة الإسلامية . واختتم هذا القسم ببيان الرسل والسفارات التي بعث بها النبي إلى سائر الحكام ، وبخاصة خارج جزيرة العرب ، ثم ذكر مرض الرسول الكريم ووفاته .

وسار الزهري طوال هذا العرض الهام وفق طريقة جعلت دراساته ممتعة بعيدة عن الملل أو الجفاف . ذلك أن الزهري لم يتبع الطريقة التقليدية في رواية أخباره وهي الطريقة التي تجعل لكل خبر سلسلة من الرواة ، وإنما اتبع طريقة الإسناد الجمعي . فكان الزهري يجمع عدة روايات التي تتصل بالأحداث في قصة سهلة متسلسلة ويبدأها بذكر رجال الأسانيد . وجاءت هذه الطريقة عنصراً هاماً في بناء وحدة الموضوع وإتاحة الفرصة أمام القارئ ليتابع دراساته دون أن يقطع عليه تفكيره اعتراض الروايات ، ولكل رواية أسانيداً عديدة . وهكذا وضع الزهري في دراساته لسيرة الرسول الكريم الأساس السليم لشرح التاريخ الإسلامي ، وإعطائه طابعه المميز ، التحرر من قيود الحديث ومحاكاة المحدثين في الإقتصار على جمع الروايات

رواية رواية ، لكل منها سلسلة أسانيدھا ، والتي لا رابط بينها .

ونهض تلامذة الزھرى بالمنهج الذى وضعه لهم أستاذھم على خير وجه ، وحفظوا فى نفس الوقت المعلومات القيمة التى جمعھا هذا الأستاذ الكبير ، بعد أن كادت تتعرض للضياع ، نتيجة اختفاء المدونات التى قام بها الزھرى نفسه . فعلى الرغم من اشتهار الزھرى بحب التدوين فلم تصلنا أعماله إلا عن طريق تلامذته ، والذين تھيات لهم سبل الإطلاع على مدونات أستاذھم — قبل ضياعھا — والنقل عنها نقلاً حرفياً فى كثير من الأحوال .

ويكون تلاميذ الزھرى الطبقة الثالثة من مؤرخى سيرة رسول الله ، ومنھم موسى ابن عقبة (ت ١٤١ ھ / ٧٥١ م) ، ومعمار بن راشد (ت ١٥٤ ھ / ٧٦٥ م) ومحمد ابن اسحق (ت ١٥١ ھ / ٧٦١ م) . وأخذت دراسات سيرة رسول الله تأخذ طابعاً هاماً على يد رجال تلك الطبقة الثالثة ، ومن أهمھا تفوق الأسلوب التاريخى فى التدوين على أسلوب جمع الأحاديث . وكان السبب فى ذلك كثرة المصادر التاريخية ، واشتداد الرغبة فى تنسيقھا ، بما يوضح سيرة رسول الله . وكان من أهم هذه المصادر الجديدة هو الجماعات التى دخلت فى الإسلام من أهل الديانات السبوية الأخرى من المسيحيين واليهود ، فضلاً عن ظهور طبقة القصاص ، والذين انتشروا فى الأمصار الإسلامية يلقون على الناس سير أبطال المسلمين ، وبخاصة أولئك الذين أسهموا فى غزوات الرسول الكريم .

واشتهر من رجال الطبقة الثالثة ، محمد بن اسحق ، الذى أقدم فى جرأة نادرة على تنسيق هذه الموارد على اختلاف مشاربھا ، ثم وضع لها تبويباً فريداً ، جعل سيرة الرسول الكريم تأخذ مكانھا اللائقة بها فى ميدان دراسات التاريخ الإسلامى خاصة ، والدراسات التاريخية الإنسانية عامة . وساعد محمد بن اسحق على أداء هذه المهمة الكبرى ما توافر له من قدرة فائقة على النقل والترحال . رغبة فى جمع المعلومات التاريخية ، وما اتصف به من جلد وصبر على مواجهة النقاد وكبار الخصوم كذلك .

ونشأ محمد بن اسحق فى المدينة ، حيث يرجع أنه ولد سنة ٨٥ ھ ، ولقى كثيراً من علماء المدينة ، وأخذ عنھم الحديث . ثم رحل سنة ١١٥ ھ إلى الإسكندرية ، حيث

اتسمت آفاق علمه ، فاستمع إلى يزيد بن أبي حبيب ، الذي كان يعد من كبار الفقهاء والمحدثين في مصر . ثم عاد بن إسحق إلى المدينة ، ومنها رحل إلى بغداد . وظل محمد بن إسحق موضوع التقدير وبخاصة في الدراسات التاريخية المتعلقة بسيرة الرسول الكريم . فقال الشافعي عن هذا المؤرخ : من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحق . وقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصور من ابن إسحق أن يؤلف لولي العهد المهدي كتاباً منذ خلق الله آدم إلى يومه .

وقد ألف ابن إسحق كتابه في سيرة الرسول الكريم ، وسماه « المغازي » . واشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أقسام كبرى ، وكل قسم منها يتناول جانباً هاماً من الدراسات التاريخية : القسم الأول هو « المبتدأ » ، والقسم الثاني هو « المبعث » والثالث هو « المغازي » وقد صارت هذه الأقسام الثلاث ينبوعاً غزيراً للباحثين في سيرة الرسول الكريم ، وبخاصة في الفترات السابقة على ظهور الإسلام ، وصدر الإسلام كذلك .

وتناول ابن إسحق في القسم الأول وهو « المبتدأ » التاريخ الجاهلي . وقسم هذا الموضوع بدوره إلى أربعة فصول ، رتبها حسب التطور التاريخي . فذكر في الفصل الأول الوحى قبل الإسلام ، منذ خلق الله العالم حتى عيسى عليه السلام . واعتمد محمد بن إسحق في هذا الفصل على القصص والأساطير ، وما كان هناك من روايات قصصية عند أحبار اليهود وكبار رجال المسيحية . وأشار أيضاً في هذا الفصل إلى قبائل العرب البائدة ، مثل عموذ وعاد ، موخجاً الرسل الذين بعثوا إلى تلك القبائل . ومن أمثلة الأساطير التي ذكرها محمد بن إسحق في هذا الفصل مما جاء عن « خلق آدم » ، قال : « فيقال — والله أعلم — إنه لما انتهى الروح إلى رأسه (رأس آدم) عطس فقال : الحمد لله . ووقعت الملائكة حين استوى سجوداً له ، حفظاً لعهد الله الذي عهد إليهم ، وطاعة لأمره الذي أمرهم به . وقام عدو الله إبليس من بينهم ، فلم يسجد متكبراً معظماً ، بغياً وحسداً ، فقال له : « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ ... إلى قوله : لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » قال ، فلما فرغ الله تعالى من إبليس ومعاذته ، وأبى إلا العصية ، أوقع الله تعالى عليه اللعنة ، وأخرجه » .

وتناول محمد بن إسحق في الفصل الثاني من « المبتدأ » ، أى العصر الجاهلى تاريخ الين قبل الإسلام . ذلك أن الإشارات التى وردت فى القرآن الكريم عن « أصحاب الأخدود » دعى إلى دراسة إنتشار المسيحية واليهودية فى بلاد الين ، وتفسير الآيات التى تتعلق « بأصحاب الفيل » كذلك ، لمعرفة جيش أبرهة ، وموقف أجداد الرسول الكريم من حملة أصحاب الفيل على مكة .

ودرس ابن إسحق فى الفصل الثالث « من المبتدأ » القبائل العربية وعبادة الأصنام ، على حين خصص الفصل الرابع لأجداد النبي المبشرين وديانات مكة . وصار هذا العرض التاريخى يكون بذلك مدخلا لدراسة القسم الثانى من السيرة .

واشتمل القسم الثانى من دراسة ابن إسحق على « المبعث » وهو معالجة حياة الرسول الكريم فى مكة والهجرة . واعتمد ابن إسحق فى هذا الفصل على روايات علماء المدينة ، وكذلك على القصص التى رويت إذ ذاك عن حياة النبي . واستطاع ابن إسحق نتيجة سعة اطلاعه أن يضيف معلومات جديدة ودقيقة عن أسماء المؤمنين الأول بالرسول ، والذين هاجروا إلى الحبشة ، وقائمة بالمشركين فى بيعق العقبة . وعندما تحدث ابن إسحق عن الهجرة ذكر قائمة بأول من أسلم من الأنصار ، وقائمة بالمهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبي . على أن أهم شىء ذكره ابن إسحق فيما يتعلق بالهجرة وما أعقبها ، هو تدوين الوثيقة المشهورة التى أبرمها النبي مع قبائل المدينة واليهود بها ، وهى الصحيفة التى غدت تكون « نظام مجتمع المدينة » ، فى صدر الإسلام .

وأفرد ابن إسحق القسم الثالث والكبير من كتابه « المغازى » ، والمقصود به ذكر تاريخ الرسول الكريم فى المدينة ، منذ بدأ القتال فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية . وتناول ابن إسحق الغزوات والسرايا ، التى خرجت من المدينة ، أو التى تعرضت لها تلك المدينة ، وجهاد الرسول والمؤمنين فى تلك الحروب . واستخدم ابن إسحق منهجاً محدوداً فى عرض المادة العلمية ، فكان يذكر ملخصاً للمحتويات الخاصة بالغزوة فى المقدمة مع بيان الرواة فى سلسلة الإسناد ، وأحياناً ينتهم هذا العرض ببيان أخبار فردية يرى أنها ذات أهمية خاصة . وأوضح ابن إسحق دراساته بيان مفصل عن الأشخاص الذين استشهدوا فى القتال ، وما قدموه من ضروب الشجاعة .

وبلاحظ أن ابن اسحق لم يقتصر في جمع رواياته على علماء المدينة ، وإنما استند إلى روايات أهل الذمة الذين اعتنقوا الإسلام ، وكذلك بعض القصاص . وقد تعرض لنقد شديد من جانب علماء وفقهاء المدينة ، وعلى رأسهم الإمام مالك ، واشتدت الخصومة بينهما ، حتى اضطر ابن اسحق إلى مغادرة المدينة ، والاتجاه إلى العراق . ولقيت سيرة ابن اسحق اهتمام أهل العراق ، وكثر رواها . ولم تصل تلك « السيرة » التي وضعها ابن اسحق كما دونها بنفسه ، وكما وضعها بتفصيلها ، وإنما وصلتنا عن طريق تلامذته ، ومن أشهرهم ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨١٣ م) .

وعمد ابن هشام إلى تنقيح سيرة ابن اسحق ، واختصر بعض أجزائها ، وبخاصة الفصل الأول من القسم الأول الذي تناول فيه « المبتدأ » ، أو التاريخ الجاهلي . وشرح ابن هشام غرضه من تهذيب تلك السيرة قائلا : « وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من ولده وأولادهم لأصلاهم ، الأول من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن اسحق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيراً له ولا شاهداً عليه لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحد من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعضه يسوء بعض الناس ذكره ... ومستقصى إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به » .

وصارت هذه النسخة المهدبة ، هي المعروفة بسيرة ابن هشام . ولكن المراجع التاريخية الأخرى ، مثل الطبري ، حفظت الكثير من الأشياء التي اختصرها ابن هشام وصارت تكون إلى جانب النسخة المهدبة ، صورة واضحة المعالم عن جهد ابن اسحق في دراسة سيرة الرسول الكريم ، وما قدمه من خدمات في بناء صرح الدراسات التاريخية الإسلامية .

وإذا كانت الدراسات الخاصة بسيرة الرسول الكريم ، التي وضعها محمد بن اسحق قد لقيت نقداً شديداً من علماء المدينة باعتبارهم القومة على هذا اللون من البحث التاريخي الإسلامي ، فإن مؤرخاً آخر ، خلف ابن اسحق ، استطاع أن ينال احترام

الجميع ، وهو محمد بن عمر الواقدي . وقد ولد هذا المؤرخ في المدينة سنة ١٣٠هـ / ٧٤٨م . في عهد الخليفة الأموي محمد بن مروان . ولقى الواقدي كثيراً من شيوخ المدينة وعلمائها ، وأخذ عنهم منهمجهم ودراساتهم ، كما ظل أميناً في نفس الوقت على تقاليدهم في دراسة سيرة الرسول الكريم . وعبر الواقدي عن ذلك قائلاً : « ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ، ولا مولى لهم إلا سألته : هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع فأعنيه » . وبذلك نبغ الواقدي في المغازي ، وصار حجة في سيرة رسول الله . وقال عن ذلك البغدادي « (وهو) (أى الواقدي) بمن طبق شرق الأرض وغربها ذكره ، ولم يخف على أحد عرف أخبار الناس أمره ، وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، والأحداث التي كانت في وقته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم » .

وقابل الواقدي الخليفة هارون الرشيد ، الذي جاء إلى الحج سنة ١٧٠هـ فقد سأل الخليفة عن رجل يستطيع أن يطوف به في أرجاء المدينة « عارف بها ومشاهدها ، وكيف كان نزول جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أي وجهة كان يأتيه ، وقبور الشهداء » . وأشار الجميع على الخليفة بأن الواقدي هو ذلك الرجل .

وأرسل الخليفة هارون الرشيد وزيره يحيى بن خالد البرمكي الذي كان في صحبته إلى الواقدي ، وقال له يحيى : « يا شيخ : إن أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن تصلي عشاء الآخرة في المسجد ، وتعضي معنا إلى هذه المشاهد فتوقفنا عليها » . وقفل الواقدي كل ما طلب منه ، ولم يترك موضعاً من المواضع ولا مشهداً إلا ومر بالرشيد عليه . وقد منح الخليفة هذا المؤرخ مبلغاً من المال صرفه في قضاء ديون كانت عليه .

ولم تلبث الأحداث أن دفعت بالواقدي إلى الانتقال إلى بغداد . وروى بنفسه سبب ذلك قائلاً : كنت حناطاً (بائع حنطة) بالمدينة ، وفي يدي مائة ألف درهم للناس أضارب بها ، فتلفت الدراهم . ثم إن الدهر أعضنا ، فقالت لي أم عبد الله : يا أبا عبد الله ، ما قعودك ، وهذا وزير أمير المؤمنين قد عرفك وسألك أن تسير إليه حيث استقرت به الدر ، فرحلت من المدينة » .

وتابع الواقدي منذ انتقاله إلى بغداد الدراسة التاريخية ، مستفيداً مما آت إلى

هذه العاصمة الجديدة للدولة الإسلامية من نشاط على باهر . والمعروف أن أيام الخليفة المأمون خاصة اشتهرت بنشاط حركة الترجمة إلى اللغة العربية وازدياد وفود العلماء من شتى الأرجاء إلى بغداد ، والمساهمة في النشاط العلمي الذي بدأ يدب بين جناتها . وكان للواقدي شغف كبير بالإطلاع على ما دونه السلف من العلماء ، وتدوين ما يروق له منها من معلومات ، ويقال أنه كان عنده غلامان يعملان ليلاً ونهاراً في نسخ الكتب ، وأنه ترك عند وفاته ستمائة قمطر من الكتب يحتاج كل منهما إلى رجلين لحمله . وبرغم ضخامة مكتبة الواقدي فإنه يؤثّر عنه قوله : ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه ، وحفظي أكثر من كتي . ولم يكن في هذا القول شيء من المبالغة لأن ما خلفه الواقدي من دراسة عن سيرة الرسول الكريم تشهد له بصدق قوله السالف الذكر .

وأطلق الواقدي على كتابه اسم « مغازي رسول الله » ، وهو يعتبر الصورة الأخيرة والكاملة من مراحل تطور دراسة السيرة النبوية في القرنين الأول والثاني للهجرة ، والأساس اللتين الذي قام عليه الصرح الشامخ لعلم التاريخ الإسلامي . ذلك أن الواقدي اطلع على جميع المدونات والروايات التي جمعها من سبقه من مؤرخي سيرة رسول الله ، ثم انفرد بوضع منهج خاص به ، كفل له أن ينعم بحق بمركز الصدارة بين مؤرخي سيرة رسول الله ، وأن يحفظ لكتابه البقاء كاملاً ، كما تركه ، حتى الوقت الحاضر .

وأهم شيء قام به الواقدي هو أنه لم يقتصر على النقل عن الرواة ، وإنما دأب على زيارة أماكن مغازي الرسول ، وبخاصة ذات الأهمية في حياة الرسول الشخصية . وأعجب المعاصرون بهذا العمل ، وأشاد به أحدهم ، وهو هارون القروي ، الذي قال : رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة (أى إناء به ماء) ، فقلت : أين تريد ، قال : أريد أن أمضي إلى حنين حتى أرى الموضع والوقعة .

وارتبط بمنهج الواقدي أمر هام انفرد به عن سائر أقرانه من السابقين له في تدوين السيرة ، وهو وضع نظام متكامل للتواريخ . فكثير من المغازي التي تناولها أسلافه غير مؤرخة ، وبخاصة عند ابن اسحق نفسه ، صاحب السيرة . ولكن التزام الواقدي في منهجه بالنظام المتكامل للتواريخ جعل كل مغازيه التي تناولها ذات تاريخ معين ومحدد كذلك ، وساعدت القارئ على تتبع الموضوع في سهولة ويسر .

واتسم منهج الواقدي في هذه المرحلة المبكرة من نشأة علم التاريخ الإسلامي بالقدرة على نقد الروايات ، مع ذكر آرائه وأفكاره عن الأخبار التي كان يسجلها . وجاء هذا العمل من جانب الواقدي خطوة تقديمية ، هيأت لكتابته المغازي مكانة تاريخية وعملية ممتازة فوق ما له من أهمية وسط المؤلفات التي تناولت سيرة الرسول الكريم . فكثيراً ما يقول الواقدي عقب بعض الروايات رأيه قائلاً مثلاً : « وهو الثبت » ، « والثابت عندنا » ، « ولا اختلاف عندنا » ، إلى غير ذلك من العبارات التي توضح رأيه الصريح في تقييم تلك الأخبار .

ولم تقتصر أهمية كتاب «المغازي» للواقدي عند المنهج الممتاز ، ولكن من حيث مادة الكتاب كذلك . فافتصرت المادة العلمية على الفترة المدنية ، أي منذ هاجر النبي إلى المدينة ، ثم بيان ما قام به من غزوات في سبيل نشر الدين الإسلامي حتى وفاته . واستهل الواقدي كتابه بمقدمة حدد فيها اليوم الذي هاجر فيه الرسول إلى المدينة ، ثم ذكر قائمة طويلة بالمصادر الأساسية للكتاب ، وهي تضم أسماء الرجال الذين اعتمد عليهم الواقدي في نقل مادته العلمية . ثم أورد بعد ذلك قائمة أخرى بمغازي رسول الله وسراياه ، واحدة واحدة ، مع تحديد تواريخ كل غزوة منها تحديداً دقيقاً . واختتم الواقدي هذه القائمة الثانية بملخص جيد لجهد الرسول قائلاً : « فكانت مغازي النبي صلى الله عليه وسلم التي غزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة ، وكان ما قاتل فيها تسعاً : بدر القتال ، وأحد ، والمريسيع ، والحنديق ، وقرظطة ، وخيبر ، والفتح وحنين والطائف ، وكانت السرايا سبعاً وأربعين سرية .

وهذه المقدمة أشبه بالفهرس التفصيلي في الكتب الحديثة ، تعطى صورة صادقة عن محتويات الكتاب ، وتساعد القارئ على تتبع ما جاء فيه من دراسات دون جهد أو عناء . ذلك أن الواقدي قام بعد هذه المقدمة بعرض دراسة تفصيلية لكل غزوة من الغزوات التي سبق أن أجمل ذكرها في المقدمة ، وأوردها حسب تسلسلها التاريخي ، وبأسلوب موحد . فيذكر أولاً اسم الغزوة وتاريخها والمستخلف على المدينة . ثم يروي سائر التفاصيل الحربية والجغرافية وغيرها من الأخبار التي تتصل بالغزوة بما يوفيهما حقها من الدراسة والوضوح . وإذا كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن ، فإن الواقدي يفردها وحدها مع تفسيرها ، ويضعها في نهاية أخبار هذه

الغزوة . وفي المغازي الهامة أيضاً يذكر الواقدي أسماء الذين استشهدوا أو قتلوا فيها ومن شهدها كذلك .

وجاءت هذه الطريقة التي اتبعها الواقدي في دراسته للمغازي سبيلاً جعل من المغازي الهامة فصولاً قاعة بنفسها ، توضح مراحل جهاد الرسول الكريم في سبيل نشر الدين الإسلامي ، أما ما عدا ذلك من الغزوات الصغرى والسرايا فهي مقدمات أو نتائج للفصول الكبرى ، أشبه بالحلقات التي بين المواضيع الرئيسية التي اشتمل عليها الكتاب ، وتجمل منه وحدة متكاملة .

ويصور كتاب « المغازي » للواقدي خمسة جوانب كبرى ، أو فصول رئيسية من سيرة الرسول الكريم . والفصل الأول منها يوضح جهاد الرسول ضد قريش ، والفصل الثاني يتناول نشاط النبي من أجل القضاء على اليهود وسلاطنتهم ، والفصل الثالث يشرح سياسة الرسول في سبيل هدم العصبية القبلية وما تبع ذلك من فتح مكة ، وذكر في القسم الرابع كفاح النبي من أجل تأمين الدعوة الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية ، وما ارتبط بذلك من وصف لأهم ما حدث في عام الوفود . وأخيراً أورد الواقدي في الشطر الخامس حجة الوداع ، ثم وفاة الرسول الكريم .

وتعتبر الفصول الخمسة السالفة الذكر مثالا رائعا لنشاط الواقدي ، ونجاحه في توضيح سيرة الرسول الكريم ، وبخاصة الجوانب الشخصية من سيرته العطرة . وتجلت قدرة هذا المؤرخ في تلك السبيل في القسم الخامس ، عند ما تنال أعمال الرسول في حجة الوداع ، إذ شرح كيف كان النبي المثل الأعلى أمام الألوف المؤلفة التي خرجت للحج معه . وأصبح كتاب « المغازي » للواقدي أكمل وأتم مصدر محامد لتاريخ النبي في المدينة ، وأوفى مرجع أيضاً لجميع مظاهر الحياة في المجتمع الإسلامي في الفترة بين هجرة الرسول إلى المدينة ووفاته بها .

ويحتتم كتاب الواقدي مرحلة هامة من مراحل تدوين التاريخ الإسلامي بدأها مؤرخو سيرة الرسول الكريم . وصارت أعمال أولئك المؤرخين الحجر الأساسى للدراسات التاريخية الإسلامية ، والتي شيدت عليها سائر المؤلفات الكبرى التي حفلت بها الدولة الإسلامية على مر العصور ، من القرن الأول الهجري إلى الوقت الحاضر .